﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: 257]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قامَتِ الآيةُ مَقامَ التَّعْليلِ والبَيانِ للآيَةِ السَّابِقَةِ، فنُزِّلَتْ مَنْزِلَةَ الجَوابِ عَنْ سُؤالِ سائِلٍ: لماذا الكُفْرُ بالطَّاغوتِ والإيمانُ باللهِ اسْتِمْساكٌ بالعُرْوَةِ الوُثْقى؟ فكان الجَوابُ: لأَنَّ اللهَ وَلِيُّ المُؤْمِنينَ، فهُوَ يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، فاسْتِمْساكُ المُؤْمِنينَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى التي هِيَ طَريقُ النّجاةِ دَعْوى، ودَليلُها تَوَلِّي اللهِ لهُمْ، فما كان لاسْتِمْساكٍ أَنْ يَدومَ إلا بوِلايَةِ اللهِ تَعالى[1].

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ للآيَتَيْنِ اللَّاحِقَتَيْنِ:

مِهادٌ وتَوْطِئَةٌ عَنْ طَريقِ فَنِّ اللَّفِّ والنَّشْرِ التَّمْثيليِّ

مَقامُ الآيَةِ مَعَ الآيَتَيْنِ اللاحِقَتَيْنِ مَقامُ اللَّفِّ والنَّشْرِ[2] غَيْرِ المُرَتَّبِ جاءَ عَلى طَريقَةِ التَّفْصيلِ، فقَوْلُهُ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ نَشَرَهُ: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، وقَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ نَشَرَهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]، فجَعَلَ لكُلِّ جُمْلَةٍ مَثَلًا، فمَثَلُ الذينَ يُخْرِجُهُمُ اللهُ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، مَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ، ثُمَّ آمَنَ فأَقَرَّ بِهِ، ومَثَلُ الَّذينَ يُخْرِجُهُمُ الطّاغوتُ مِنَ النّورِ إلى الظُّلُماتِ، الَّذي حاجَّ إبْراهيمَ في رَبِّهِ، وهَذا مِنْ بَديعِ مُبْتَكَراتِ بَلاغَةِ القُرْآنِ

(1) ينظر هذا المعنى عند البقاعي، نظم الدرر: 44/4.

(2) قال المبرد: "العرب تلفُّ الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملةً، ثقةً بأنَّ السّامع يردُّ إلى كلٍّ خبَره"، الكامل في اللغة: 1/107. وقال السكاكي "اللف والنّشر: أن تلفَّ بين شيئين في الذّكر، ثم تُتبعهما كلامًا مشتملًا على متعلّق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثقةً بأنَّ السّامع يردُّ كلًا منهما على ما هو له". السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 425.

الكَريم، أَنْ دَمَجَ بَيْنَ فَنَّيْنِ؛ اللَّفِ والنَّشْرِ، والتَّمْثيلِ، وجَعَلَ مِنَ التَّمْثيلِ بَيانًا لما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وجاءَ عَلى طَريقَةِ اللَّفِّ والنَّشْرِ غَيْرِ المُرَتَّبِ، ليَبْدَأَ بلَفْظِ الجَلالَةِ، ويَنْتَهِيَ بالإيمانِ بالبَعْثِ، إشْعارًا بمَبْدَأِ الأَمْرِ ومُنْتَهاهُ، وأَنَّ ما بَيْنَهُما لا عِبْرَةَ فيهِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيُّ﴾: مَصْدَرُهُ الوَلْيُ وهُوَ القُرْبُ، وأَصْلُهُ المَطَرُ الذي يَأْتي بَعْدَ المَطَرِ، يُقالُ: وُلِيَتِ الأَرْضُ وَلْيًا، والاسْمُ: الوَلِيُّ[2]، يُقالُ: "تَباعَدَ بَعْدَ وَلْيٍ، أَيْ: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمَّا يَليني، أَيْ: يُقارِبُني"[3]، و"المُوالاةُ أَنْ يُوالِيَ بَيْنَ رَمْيَتَيْنِ أو فِعْلَيْنِ في الأَشْياءِ كُلِّها . . وتَقولُ: عَلى الوَلاءِ، أَيِ: الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ"[4].

فمَعْنى الوَلِيِّ: الشَّيْءُ القَريبُ التَّالي دونَ فاصِلٍ مادِّيٍّ أَوْ زَمانيٍّ، فهُوَ لَيْسَ التِصاقًا، وجَميعُ الاسْتِعْمالاتُ تَدورُ حَوْلَ هَذا المَعْنى، يُقالُ: أَوْلى، أَيْ: أَحَقُّ، وذَلِكَ لقُرْبِهِ، سَواءٌ أَكانَ القُرْبُ مَعْنَويًا أَمْ ماديًا، و"الوَلِيُّ والمَوْلَى يُسْتَعْمَلانِ في تَوَلِّي الأَمْرِ"[5]، ولا يَتَوَلَّى الأَمْرَ إلَّا مَنْ كانَ قَريبًا، مِنْ حَيْثُ الدِّينُ، أو النَّسَبُ، أو الصَّداقَةُ، أَوْ غَيْرُها، ولِذَلِكَ حَسُنَ أَنْ يُطْلَقَ "المَوْلى عَلى: المُنْعِمِ المُعْتِقِ، وعَلى المُنْعَمِ عَلَيْهِ المُعْتَقِ"[6]؛ لقُرْبِ كُلٍّ مِنْهُما مِنَ الآخَرِ.

2) ﴿يُخْرِجُهُم﴾: الإخْراجُ: نَقيضُ الإدْخالِ، وأَصْلُ الكَلِمَةِ مَأْخوذٌ مِنَ البُروزِ مِنَ المَقَرِّ أَوِ الحالِ[7]، فالعَرَبُ تَقولُ: ناقَةٌ مُخْتَرِجَةٌ، أَيْ: خَرَجَتْ عَلى خِلْقَةِ الجَمَلِ، وتُسَمِّي السَّحابَ أَوَّلَ ما يَبْدَأُ: الخَروجَ، والخُرَاجُ: وَرَمٌ وقُرْحٌ يَخْرُجُ مِنْ ذاتِهِ[8]، ومَعْنى الخُروجِ: الانْتِقالُ مِنْ داخِلٍ إلى خارِجٍ، ومِنْ باطِنٍ إلى ظاهِرٍ، ماديًّا أَوْ مَعْنَويًّا، فيَأْتي بمَعْنى الظُّهورِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ [مريم: 11] ويَأْتي بمَعْنى الفِرارِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: 21]، والإبْرازِ والإظْهارِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَنُخْرِجُ

(1) ينظر نحو هذا التناسب عند ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/3.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ولي).
(3) ابن فارس، المقاييس: (ولي).
(4) الخليل، العين: (ولي).
(5) الراغب، المفردات: (ولي).
(6) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 46.
(7) الراغب، المفردات: (خرج).
(8) الخليل، العين: (خرج).

لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ [الإسراء: 13]، والنُّمُوُّ الظَّاهِرِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 22]، والطَّرْدِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: 34]، والتَّحَوُّلِ مِنْ حالٍ إلى أُخْرى؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ [طه: 88]، والمُغادَرَةِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]، والوِلادَةِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النحل: 78]، فالانْتِقالُ هُوَ المَعْنى الجامِعُ لجَميعِ هَذِهِ الآيات، "والإخْراجُ أَكْثَرُ ما يُقالُ في الأعْيانِ"[1].

3) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الظُّلْمَةُ: جَمْعُها: ظُلُماتٌ، وظُلَمٌ، والاسْمُ الظَّلامُ، وهِيَ: عَدَمُ النُّورِ وذَهابُهُ، أَوْ حَجْبُ ما يَنْبَغي أو ما يُسْتَحَقُّ، أَيْ: مَنْعُهُ أَوِ انْتِقاصُهُ[2]، والظَّلامُ أَصْلُ الظُّلْمِ الذي يُقابِلُ الجَوْرَ، فالظُّلْمُ في حَقيقَتِهِ ظَلامٌ؛ لأَنَّ عَدَمَ إعْطاءِ الشَّيْءِ حَقَّهُ هُوَ مَحْوٌ لصِفاتِهِ، فَيُصْبِحُ الشَّيْءُ مُظْلِمًا؛ لأَنَّ نورَ الشَّيْءِ صِفاتُهُ، وبِدونِها فالأَمْرُ مُظْلِمٌ لا نورَ فيهِ، "والعَرَبُ تَقولُ: ظَلَمَ فُلانٌ سِقاءَهُ: إذا سَقاه قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَ زَبَدَهُ، ويُقالُ: ظَلَمْتَ الحَوْضَ: إذا عَمِلْتَهُ في مَوْضِعٍ لا تُعْمَلُ فيهِ الحِياضُ، وأَرْضٌ مَظْلومَةٌ إذا لَمْ تُمْطَرْ"[3]، وهَذا كُلُّهُ حَجْبٌ ومَنْعٌ للصِّفاتِ المُسْتَحَقَّةِ.

4) ﴿ٱلنُّورِ﴾: هُوَ الضِّياءُ، والفِعْلُ: نارَ وأَنارَ، أَيْ: أَضاءَ، والنَّوْرُ: زَهْرُ الشَّجَرِ، وتَنْويرُ الشَّجَرَةِ: إزْهارُها، وامْرَأَةٌ نَوارٌ: وهِيَ العَفيفَةُ النّافِرَةُ عَنِ الشَّرِّ والقَبيحِ، والجَميعُ: النُّورُ[4]، فأُطْلِقَ النُّورَ تَشبيهًا عَلى أَمْرٍ حِسِّيٍّ وهُوَ تَنْويرُ الشَّجَرَةِ، ومَعْنَوِيٍّ وهُوَ خُلُقُ المَرْأَةِ النّافِرَةِ عَنِ القَبيحِ، والجامِعُ بَيْنَهُما الأَصْلُ الواضِحُ النَّقِيُّ، وهَذا شَأْنُ النُّورِ، ولذَلِكَ وَرَدَ في الخَبَرِ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَرَضَ للجَدِّ، ثُمَّ أَنارَها، أَيْ: وضَّحَها وبَيَّنَها[5].

والنُّورُ هُوَ: الضَّوْءُ المُنْتَشِرُ الَّذي يُعينُ عَلى الإبْصارِ، وذَلِكَ ضَرْبانِ: ضَرْبٌ مَعْقولٌ بِعَيْنِ البَصيرَةِ، وهُوَ ما انْتَشَرَ مِنَ الأُمورِ الإلَهِيَّةِ كنورِ القُرْآنِ، ومَحْسوسٌ بِعَيْنِ البَصَرِ[6].

(1) الراغب، المفردات: (خرج).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ظلم).
(4) الخليل، العين: (نور).
(5) الهروي، الغريبين: (نور)، وابن الأثير، النهاية: 5/125.
(6) الراغب، المفردات: (نور).

5) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: الصَّاحِبُ: مَأْخوذٌ مِنَ الجِذْرِ الثُّلاثِيِّ (صَحِبَ)، "وكُلُّ شَيْءٍ لازَمَ شَيْئًا فقَدْ اسْتَصْحَبَهُ"[1]، فالصُّحْبَةُ "أَصْلُها الاجْتِماعُ؛ طالَ زَمَنُها أَوْ قَصُرَ"[2]، والصَّاحِبُ: "المُلازِمُ؛ إنْسانًا كانَ أَوْ حَيَوانًا، أَوْ مَكانًا، أَوْ زَمانًا، وَلا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَكونَ مُصاحَبَتُهُ بالبَدَنِ - وهُوَ الأَصْلُ والأَكْثَرُ -، أَوْ بالعِنايَةِ والهِمَّةِ"[3].

6) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: الخُلودُ: "تَبَرِّي الشَّيْءِ مِن اعْتِراضِ الفَسادِ، وبَقاؤُهُ عَلى الحالَةِ التي هُوَ عَلَيْها، وكُلُّ ما يَتَباطَأُ عَنْهُ التَّغْييرُ والفَسادُ تَصِفُهُ العَرَبُ بالخُلودِ"[4]، وأَصْلُ هَذِهِ المادَّةِ مِنَ الثَّباتِ والمُلازَمَةِ[5]، وجَميعُ الاسْتِعْمالاتِ لا تَخْرُجُ عَنْ هَذا المَعْنى، فالخالِدونَ في النَّارِ هُمُ الثَّابِتونَ المُلازِمونَ لَها.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبَيِّنُ الآيَةُ مَعالِمَ الوِلايَةِ المَقْبولَةِ عِنْدَ اللهِ تَعالى الخاصَّةِ بِهِ دونَ سِواه، فاللهُ هُوَ وَلِيُّ المُؤْمِنينَ هِدايَةً ونُصْرَةً ورِعايَةً، ومِنْ شَأْنِ هَذِهِ الوِلايَةِ أَنْ تُخْرِجَ المُؤْمِنينَ مِنْ ظُلُماتِ الشَّكِّ والاضْطِرابِ والقَلَقِ إلى نورِ الإيمانِ والطُّمَأْنينَةِ والسَّكينَةِ.

وفي المُقابِلِ وِلايَةُ الكافِرينَ للطَّاغوتِ مُتَشَعِّبَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، لا تَرْسو عَلى حالٍ، ولا تَرْسُبُ في مَآلٍ، ومن أعظم الطواغيت الشيطانُ الرجيم؛ فإنه يسلَّط عليهم عقوبةً لهم، فَهُمْ في دَيْمومَةِ الخُروجِ مِنْ أَسْبابِ النُّورِ والهِدايَةِ والإيمانِ، إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، وهُمْ بذَلِكَ يَسْتَحِقّونَ الصُّحْبَةَ السَّرْمَدِيَةَ في النَّارِ الأَبَدِيَةِ، كَما ارْتَضَوْا صُحْبَةَ الطَّاغوتِ الدَّائِمَةَ في الدُّنْيا الفانِيَةِ.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة العدول إلى الفصل بالاستئناف في الآية:

وردَ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على سبيل الاستئناف؛ لبيان الفرق بين

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (صحب).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (صحب).
(3) الراغب، المفردات: (صحب).
(4) الراغب، المفردات: (خلد).
(5) ابن فارس، المقاييس، والسمين، عمدة الحفاظ: (خلد).

الوليّ الهادي والوليّ المضلّ، وبين طريق الحقّ والنّور، وطريق الظلمات، فلا بدّ من استئنافِ كلامٍ بأنْ يُقال: فقد ظهرَ الحقّ من الباطل، فمن سلك طريق الحقّ فقد رُشد وهُدي، ومن خبط في ظلمات الباطل فقد ضلّ وغوى؛ لأن من يكون هاديه الله يخرجه من الظلمات إلى النور، ومن يكون مضلّه الطاغوت فالحكم بالعكس[1].

عُدل إلى الاستئناف؛ لبيان الفرق بين الوليّين، وبين الطريقين

وقع قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ موقع التَّعليل لقوله تعالى في الآية قبلها: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: 256]؛ "لأن الذين كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله قد تولوا الله فصار وليهم، فهو يقدر لهم ما فيه نفعهم وهو ذب الشبهات عنهم، فبذلك يستمرّ تمسّكهم بالعروة الوثقى ويأمنون انفصامها، أي: فإذا اختار أحدٌ أنْ يكونَ مسلمًا فإن الله يزيده هدى"[2].

وجه الفصل وقوع الآية موقع التعليل لما قبلها

جمال صحّةِ التّقسيم في الآية:

ومن البديع صحةُ التقسيم الممثّل في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾[3]؛ إذ قسَّم الجملة قسمة مستوية تحتوي على صورتي الولايتين، وما يخلص عنهما من طريق فلا بدَّ عنهما وجه. وحسن التقسيم ههنا لكونه بيانًا لأحوال ولاية المؤمنين والكافرين ومآليهما هدايةً، وغوايةً على صيغة إبلاغيّة إرشاديّة بيّنة قاطعة للاحتمال والتأويل.

في صحّة التّقسيم بيانٌ لأحوال ولاية المؤمنين والكافرين ومآليهما هدايةً، وغوايةً

بَديعُ المُطَابَقَةِ الجمليّة واللفظيّة[4]:

في الآيَةِ طِباقٌ بَيْنَ جُمْلَةِ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، وجُمْلَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، وتَظْهَرُ لَذَّةُ المُطابَقَةِ في كَوْنِها

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 3/498.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/30.
(3) بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ص: 114.
(4) المطابقة: الجمع بين الشيء وضدّه في جزءٍ من أجزاء الكلام. يُنظر: العسكري، الصناعتين، ص: 307.

في الطباق بين جملتي الآية إظهارٌ جمالِ الولايَةِ الإلَهيَّةِ، وإبرازُ شَناعَةِ الولايَةِ الكُفْرِيَّةِ بالتَّضادِّ

قابَلَتْ بَيْنَ ولايَتَيْنِ مُتَضادَّتَيْنِ، تَضَمَّنَتْ كُلٌّ مِنْهُما: الوَلِيَّ، والمُتَوَلَّى، ونَتيجَةَ الولايَةِ، فأَظْهَرَتْ كُلُّ جُمْلَةٍ مَزِيَّةَ الأُخْرى، فلا يُظْهِرُ جَمالَ الولايَةِ الإلَهِيَّةِ للذينَ آمَنوا شَيْءٌ، كولايَةِ الطّاغوتِ للَّذينَ كَفَروا، ولا يُبْرِزُ شَناعَةَ الكافِرينَ في مُوالاةِ الطَّاغوتِ شَيْءٌ، كسَعادَةِ إخْراجِ المُؤْمِنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ.

الطباق في ألفاظ الآية إفصاحٌ عن دلالة الربط المؤدّي إلى مزيدِ إيْضاحٍ للمعنى، وترسيخ دلالة المبنى

وفي الآية طباق على مستوى الألفاظ بين: ﴿ءَامَنُواْ﴾، و﴿كَفَرُوٓاْ﴾، وبين: ﴿ٱلنُّورِ﴾، و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وفي هذا الطباق إفصاحٌ عن دلالة الرَّبط في الآية الكريمة المؤدّي الى مزيدِ إيْضاحٍ للمعنى، وبيانه، وترسيخ دلالة مبناه؛ بما يسبّبه من شدٍّ، وجذب على النَّفْس المتلقية له قراءةً، وتدبّرًا. وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفة الإبلاغيّة للطباق بالوظيفة التأثيريّة التي يترسّخ من خلالها المنهج الفطريّ السّليم للنَّفس البشريّة باتبّاع الإيمان، ونبذ الكفر، والاستبشار بالنّور واتّباعه، والنّفرة من الظلمة ونبذها.

بَلاغَةُ التّعبير بالجُمْلَةِ الاِسْمِيَّةِ:

دلالة اسميّة الجملة دَيْمومَةُ وِلايَةِ اللهِ لِلمُؤْمِنينَ، وبَيانُ عَلاقَتِها بالعُرْوَةِ الوُثْقى

الجُمْلَةُ الاِسْمِيَّةُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، تُعَيِّنُ ثُبوتَ وِلايَةِ اللهِ تَعالى للذينَ آمَنوا، وأنَّها وِلايَةٌ دائِمَةٌ لا تَنْقَطِعُ، وهُوَ ما يُرَشِّحُ قُوَّةَ عَلاقَةِ العُرْوَةِ الوُثْقى التي لا انْفِصامَ لها بها، فدَيْمومَةُ وِلايَةِ اللهِ للمؤمنين، هيَ دَليلُ اتِّصالِ العُرْوَةِ الوُثْقى، وهَذا ما يَزيدُ المُؤْمِنَ طُمَأْنينَةً في أَنَّهُ ناجٍ عِنْدَ رَبِّهِ.

بديعُ الاِبْتِداءِ بلَفْظِ الجَلالَةِ:

البدء بلفظ الجلالة الأعظم بَراعَةُ اسْتِهْلالٍ، وبثّ مهابةٍ وجلالٍ، وتَشْويقٌ لمَعْرِفَةِ الخَبَرِ

الاِبْتِداءُ بلَفْظِ الجَلالَةِ بَراعَةُ اسْتِهْلالٍ فإنَّهُ يُورِثُ المَهابَةَ والجَلالَ في قُلوبِ المُخاطَبينَ، ويوقِعُ في النُّفوسِ التَّشْويقَ وتَرَقُّبَ الإخْبارِ عَنْهُ، فإنَّهُ مَثارُ تَهَيُّبِ النُّفوسِ لتَلَقِّي خَبَرِ ذي شَأْنٍ.

ومجيء المسندِ إليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ علَماً وبأجلّ الأسماء وأعظمها؛ لاستحضارِ معناهُ في ذهنِ السَّامعِ،

والابتداءُ باسمهِ الأعظم الخاصِّ ليمتازَ عمَّا عداهُ، فضلًا عمّا يحتمله من وجوه المدح بما يُشْعِرُ به الاسم، والتبرّكُ بذكرهِ، و التلذّذُ باسمهِ[1].

البدء باسمه الأعظم؛ استحضارٌ لمعناهُ في ذهنِ السَّامعِ، ومدحٌ، وتبرّكٌ بذكره، وتلذّذٌ

سرُّ التَّعْبيرُ بالاِسْمِ المَوْصولِ:

آثَرَتِ الآيَةُ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التَّعْبيرَ بالاِسْمِ المَوْصولِ لا بالاِسْمِ الظَّاهِرِ فلَمْ يَقُلْ: (وَلِيُّ المُؤمِنينَ)، لبَيانِ أَنَّ الإيمانَ هُوَ العِلَّةُ التي لأجْلِها تَوَلَّى اللهُ المُؤْمِنينَ، ممَّا يَسْتَدْعي تَمامَ المَدْحِ لَهُمْ بإيمانِهِمْ، وهِيَ دَعْوَةٌ ضِمْنِيَّةٌ للمُحافَظَةِ عَلى الإيمان، ولَوْ قال: وَلِيُّ المُؤْمِنينَ، لَفُهِمَ أَنَّ الوِلايَةَ للمُؤْمِنينَ باعْتِبارِ مُجَرَّدِ الاتِّصافِ بِهِ، لا باعْتِبارِ المُحافَظَةِ عَلَيْهِ، واسْتِحْقاقِهِمْ لِمُسَمَّاهُ.

التعبير بالموصول كَشْفٌ عَنِ العِلَّةِ التي لأجْلِها اسْتَحَقَّ المُؤْمِنونَ الوِلايَةَ

علّة إيثارِ صيغَةِ المُضارِعِ:

وَقَعَ الفِعْلُ المُضارِعُ ﴿يُخْرِجُهُم﴾: مَوْقِعَ التَّفْسيرِ والبَيانِ للوِلايَةِ، فكَأَنَّ سائِلًا قَدْ سَأَلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ الوِلايَةِ؟ فكانَ الجَوابُ: بِأَنْ يُخْرِجَهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، والإتيانُ به على هيئة المُضارِعِ لبَيانِ تَجَدُّدِ "الإخْراجِ مِنَ اللهِ تَعالى في الزَّمَنِ المُسْتَقْبَلِ في حَقِّ مَنْ آمَنَ، بزِيادَةِ كَشْفِ الشُّبْهَةِ ومُضاعَفَةِ الهِدايَةِ، ولَفْظُ الماضي لا يَدُلُّ عَلى هَذا المَعنى"[2]، وما أَجْمَلَ بَيانَ اسْمِيَّةِ الوِلايَةِ بصيغَةِ المُضارِعِ! وذَلِكَ لبَيانِ دَيْمومَةِ وِلايَةِ اللهِ للمُؤْمِنينَ، وتَجَدُّدِها في الأثَرِ وهُوَ إِخْراجُهُمْ إلى نورِهِ سُبْحانَهُ، وهَذا التَّجَدُّدُ دَليلُ تَمامِ الوِلايَةِ وعَظيمِ الرِّعايَةِ، وعَلى هَذا فأَنْ تَكونَ جُمْلَةُ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استِئْنافًا، أَوْلى مِنْ جَعْلِها حالِيَّةً أَوْ خَبَرًا ثانِيًا[3].

إيثار المضارع بَيانٌ لدَيْمومَةِ الوِلايَةِ بتَجَدُّدِ أثَرِها في زِيادَةِ كَشْفِ الشُّبْهَةِ وَمُضاعَفَةِ الهِدايَةِ:

نكتة التَّعْبير بالنُّورِ دونَ الضِّياءِ:

يُسْتَعْمَلُ النُّورُ في المَعْنَوِيَّاتِ والمَحْسوساتِ، بخِلافِ الضِّياءِ فلا

(1) علي بن نايف الشحود، الخلاصة في علوم البلاغة، ص: 17

(2) الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 27، بتصرف.

(3) السمين، الدر المصون: 2/549.

عبّر بالنّور لحضر المُحتَمَلاتِ الدّلاليّة، وتَعيُّن حَمْلِها عَلى المَعْنى المَعْنَويّ فِطْرِيًّا وقُرْآنِيًّا

يُسْتَعْمَلُ إلَّا في المَحْسوساتِ، ولذَلِكَ لَوِ اسْتُعْمِلَ الضِّياءُ في هَذا السِّياقِ لَحُمِلَ عَلى المَعْنى الحِسِّيِّ، وهُوَ غَيْرُ مُرادٍ، إذِ المُرادُ تَعَيُّنُ حَمْلِهِ عَلى الهِدايَةِ الفِطْرِيَّةِ والقُرْآنِيَّة، دونَ احْتِمالِهِ لِمَعْنى الضِّياءِ المادِّيِّ المَحْسوسِ. وهَذا مِنْ بَلاغَةِ اخْتِيارِ الأَلْفاظِ القُرْآنِيَّةِ، في حَصْرِ المُحْتَمَلاتِ الدَّلالِيَّةِ؛ لِدَفْعِ شَتاتِ الذِّهْنِ عَنِ التَّأْويلِ البارِدِ، وكذَلِكَ اخْتِيارُ لَفْظِ النُّورِ يُعينُ عَلى حَمْلِهِ عَلى مَعْنَيَيِ الفِطْرَةِ والبَيِّناتِ، وهُوَ الأَوْفَقُ بَلاغَةً، والأَقْوى فَصاحَةً، والأَرْسَخُ دَلالَةً، كما سَيَأْتي.

جَمالُ الاستعارة التصريحية: في استعارة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِ﴾ للضلال والهدى:

بِناءُ القيمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ الهِدائِيَّةِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ، تَرْغيبًا وتَرْهيبًا

اسْتَعارَتِ الآيَةُ لَفْظَ الظُّلُماتِ لِمَعْنى الشِّرْكِ والضَّلالِ والجَهْلِ، ولَفْظَ النُّورِ لِمَعْنى الإيمانِ والهِدايَةِ والعِلْمِ، عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحِيَّةِ الأَصْلِيَّةِ؛ مُبالَغَةً في الكَشْفِ عَنْ حَقيقَةِ الشِّرْكِ والإيمانِ، بأُمورٍ حِسِّيَّةٍ، للتَّرْغيبِ في الإيمانِ، والتَّرْهيبِ مِنَ الشِّرْكِ، ولإخراجِ المؤمنين من الكفر إلى الإيمان، ومن الغَيِّ إلى الرشاد، ومن عمياء الجهل إلى بصائر العلم،[1]. فهَدَفُ الاسْتِعارَةِ بِناءُ القيمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ الهِدائِيَّةِ في النُّفوسِ، "وذَلِكَ مِنْ أَحْسَنِ التَّشْبيهاتِ؛ لأَنَّ الكُفْرَ كالظُّلْمَةِ التي يَتَسَكَّعُ فيها الخابِطُ، ويَضِلُّ القاصِدُ، والإيمانُ كالنُّورِ الذي يَؤُمُّهُ الحائِرُ، ويَهْتَدي بِهِ الجائِرُ؛ لأَنَّ عاقِبَةَ الإيمانِ مُضيئَةٌ بالإيمانِ والثَّوابِ، وعاقِبَةَ الكُفْرِ مُظْلِمَةٌ بالجَحيمِ والعَذابِ. وفي لِسانِهِمْ وَصْفُ الجَهْلِ بالعَمى والعَمَهِ، ووَصْفُ العِلْمِ بالبَصَرِ والجَلِيَّةِ"[2].

في اللفظين مجازٌ فالمراد بالظلمات هنا الضلالة؛ لأن المفاسد

(1) الشريف الرضي، تلخيص البيان: 2/121.

(2) الشريف الرضي، تلخيص البيان: 2/121، ويُنظر: الشريف المرتضى، أمالي المرتضى: 2/14.

التي ينشرها الطغيان تظلمُّ بها النفس وتكون في حيرة، وتنقطع عن سبيل الهداية، والمراد بالنور هو الهدى؛ لأن الهدى يكشف عن ينابيع الحق والخير في النفس، وهو سلوك الطريق الموصل إلى ما يسعد الإنسان في الفانية والباقية فهو كالمصباح للمؤمن به يهتدي، وبه يصل إلى الغاية[1].

وجه الاستعارة أنّ المفاسد التي ينشرها الطغيان تظلمُّ بها النفس، وأنّ الهدى كالمصباح للمؤمن به يهتدي، وبه يصل إلى الغاية.

سِرُّ جَمْعِ الظُّلُماتِ وإفْرادِ النُّورِ:

لَمَّا كانَ طَريقُ الحَقِّ واضِحًا مستقيمًا كان واحِدًا، وأمَّا الباطِلُ فلَمَّا كان غامِضًا مُبْهَمًا كانَتْ طُرُقُه كثيرة مُتَشَعِّبَةً مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً، ولَمَّا كانَتِ الظُّلْمَةُ بمَنْزِلَةِ طَريقِ الباطِلِ، والنُّورُ بمَنْزِلَةِ طَريقِ الجَنَّةِ، بَلْ هُما هُما، أَفْرَدَ النُّورَ وجَمَعَ الظُّلُماتِ، وأَصْلُ النُّورِ واحِدٌ وهُوَ اللّه جَلَّ في عُلاهُ، وأَصْلُ الظُّلُماتِ مُتَعَدِّدٌ بتَعَدُّدِ الأَهْواءِ والضلالات، وطرق الغيّ[2]، فـ" إفراد النور لِوَحْدَةِ الحقِّ كما أن جمْعَ الظلمات لتعدّد فنون الضَّلال"[3]، وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّ الإفْرادَ إيماءٌ إلى القِلَّةِ، والجَمْعَ إيماءٌ إلى الكَثْرَةِ[4]، فإنَّ أَهْلَ الحَقِّ هُمُ القِلَّةُ القَليلَةُ، قال تَعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: 116]، وقالَ: ﴿الٓمرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [الرعد: 1].

طَريقُ الحَقِّ واحِدٌ لوُضوحِهِ، وطَريقُ الباطِلِ مُتَعَدِّدٌ لغُموضِهِ

بلاغةُ تقْديم الفاعلِ وتأخيرِه في الجُمْلَتَيْنِ:

اخْتَلَفَ التَّعْبيرُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ، فقَدَّمَ في الأولى الفاعل (لَفْظَ الجَلالَةِ)، وقدّم في الثَّانِيَةِ الاسْمَ المَوْصولَ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فلَمْ يَقُلْ: (والطَّاغوتُ وَلِيُّ الذينَ كَفَروا)؛ إشارَةً إلى أنَّ مَبْدَأَ الحَقِّ

وجه تقديم الفاعل وتأخيره الإشارَةُ إلى مَبْدَأِ الحَقِّ والباطِلِ، ومراعاةُ لفْظِ الجَلالَةِ أَنْ يُقابِلَهُ لَفْظُ الطَّاغوتِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/952.
(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/120، وطريق الهجرتين، ص: 177، والزركشي، البرهان: 4/12.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/15.

مِنَ اللهِ تَعالى فهُوَ الذي يَتَوَلَّى المُؤمنينَ، وأنَّ مَبْدَأَ الباطِلِ مِنَ الذينَ كَفَروا، فَهُمُ الذينَ يَتَّخِذونَ الطَّاغوتَ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى، و"للاحْتِرازِ عَنْ وَضْعِ الطاغوتِ في مُقابَلَةِ الاسْمِ الجَليلِ، ولقَصْدِ المُبالَغَةِ بتَكْريرِ الإسْنادِ مَعَ الإيماءِ إلى التَّبايُنِ بَيْنَ الفَريقَيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، حَتَّى مِنْ جِهَةِ التَّعْبيرِ أيْضًا"[1].

التَّعْبيرُ بالاسْمِ المَوْصولِ:

إقامَةُ الدَّليلِ عَلى الكافِرينَ بالاسْتِشْهادِ عَلَيْهِم بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ

جرى إيثارُ الاسْمِ المَوْصولِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دونَ الاسْمِ الظَّاهِرِ، فَلَمْ يَقُلْ: (والكافِرونَ)؛ للاسْتِشْهادِ عَلَيْهِم بكُفْرِهِمْ، وأنَّهُ سَبَبُ اتِّخاذِهِمُ الطَّاغوتَ أَوْلِياءَ لَهُمْ، وإخْراجِهِم منَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ، قال العمادي: أنّ ذكرَ "الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة وما يتبعه من القبائح"[2]. "ففي التعبير بالذين كفروا إشارة بيانية إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يجعلوا الطغيان متحكِّمًا في قلوبهم، إذ كفرُهم واستيلاءُ الشهوات على نفوسهم هو الذي سهَّلَ استمراءَ ولاية الطاغوت عليهم، وتَحَكُّمَه فيهم، وسيطرته على نفوسهم، وحيث كانت الشهوات مُسْتَحْكِمَةً فللأوهام سلطان، وللجبابرة سلطان، وللكبراء المضلّين مكان"[3].

مُقابَلَةُ المُفْرَدِ بالجَمْعِ:

إفادَةُ الاخْتِصاصِ، ووُضوحُ نورِ الحَقِّ، وغُموضُ طُرُقِ الباطِلِ

أُفْرِدَ (الوَليُّ) في حَقِّ اللهِ تَعالى لأنَّ الحَقَّ واحِدٌ، فهُوَ الوَليُّ دونَ سِواهُ، ولا يَتَوَلَّى أَمْرَ العِبادِ عَلى الحَقيقَةِ أَحَدٌ سِواهُ، وجُمِعَ (الأَوْلِياءُ) في جانِبِ الطَّاغوتِ؛ لأنَّ أَوْلِياءَ الكافِرينَ مُتَعَدِّدونَ، بحَسَبِ أَنْواعِهِمْ وأَجْناسِهِمْ واتِّجاهاتِهِمْ؛ ولِذلكَ قال: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾، فدَلَّ الإفْرادُ عَلى وُضوحِ نورِ الحَقِّ، والجَمْعُ عَلى غُموضِ طُرُقِ الباطِلِ، وأفادَتْ مُقابَلَةُ إفْرادِ الوَليِّ بجَمْعِ الأَوْلِياءِ الاخْتِصاصَ، إذْ لا وَليَّ للمُؤْمِنينَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/251.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/953.

سِواهُ تَعالى، بخِلافِ الكافِرينَ فأَوْلِياؤُهُمْ كَثْرَةٌ. قال ابن القيّم: "فَوَحَّدَ وليّ الذين آمنوا وهو اللّه الواحد الأحد وجَمَعَ أولياء الذين كفروا لتعدّدهم وكثرتهم"[1].

عِلَّةُ إفرادِ الطاغوت وجَمْعِ الأولياء:

في الإفراد والجمع إشارة بيانية إلى أن الطاغوت مهما تتعدد ضروبه، ومظاهر سلطانه، فهو نوع واحد

جَعل ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ "علمًا على الكفر وعلى الأصنام، وأصله صفة بالمصدر ويطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كشأن المصادر"[2]. وهو ههنا واحد في معنى جماعة، وجاز؛ لأنّ في الكلام دليلًا على الجماعة[3]. وفي إفراده، وجمع الأولياء إشارةٌ بيانيةٌ إلى أنّ الطاغوت مهما تتعدد ضروبه، وأشكاله ومظاهر سلطانه، فهو نوع واحد، أساسه أن يتحكَّمَ في وَهَمِ الأنفس، وهواها، وذلّها، وضعفها. لكن سلطانه متعدد؛ يظهر مرة في مظهر ذي سلطان متجبّر تخضع الرقاب لطغيانه ذلّةً أو شهوةً رديّةً، ويظهر أخرى في دعوةٍ إلى الباطل زخرفها تمويهُ داعيةٍ مضلٍّ، أو في أوهام مسيطرة على الجماعة تجعلها تعبد حجرًا أصمَّ لَا يَسمعُ ولا يُبصرُ، وغير ذلك من صور الغواية والضلال. وعلى ذلك يكون الطاغوت واحدًا؛ لأنه ضلال كيفما كان، ولكن لتعدد مظاهر سلطانه تعددت ولاياته وكلها لَا قوة لها أمام قوة اللّه سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا[4].

عِلَّةُ عَوْدِ الضمير بصيغة العقلاء:

عودُ ضمير العقلاء أقوى في الدلالة على تمكّن الطاغوت ممّن يُضلِّهم

"وأعيد الضمير إلى الطاغوت بصيغة جمع العقلاء؛ لأنه أسند إليهم ما هو من فعل العقلاء وإن كانوا في الحقيقة سبب الخروج لا مخرجين"[5]. وهو أقوى في الدلالة على تمكّن الطاغوت ممّن يُضلِّهم؛ بتصوير فعل الإخراج، وعموم أفعاله وكأنها صادرة من عقلاء، وترسيخ لمعنى تعدد صور الغواية.

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/120.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/340.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/953.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/31.

سرُّ جَمْعِ الضَّميرِ لا إفْرادِه:

وجـه جَمْع الضَّمير التَّحذيرُ مِنْ طَرائِقِ الباطِلِ الملْبِسَةِ، وأَشْكالِهِ المُتَعَدِّدَةِ

جاءَ الضَّميرُ في قَوْلِه: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ جَمْعًا لا مُفْرَدًا، فلَمْ يَقُلْ: (والذينَ كَفَروا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغوتُ يُخْرِجُهُمْ)، فعادَ الضَّميرُ إلى مَعْنى الجَمْعِ لا الإفْرادِ، تَنْبيهًا عَلى أنَّ الإخْراجَ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ، لَهُ طُرُقُهُ المُلْبِسَةُ وأَشْكالُهُ المُتَعَدِّدَةُ، وأَنَّ عَلى الإنْسانِ أنْ يَحْذَرَ مِنْها، فالتَّعَدُّدُ في الظُّلُماتِ، والأَوْلِياءِ، والطُّرُقِ، وهَذا مِن بَديعِ التَّنْبيهِ والتَّحْذيرِ مِنْ طَرائِقِ الباطِلِ وأَهْلِه. قال البقاعي: "ثم بَيَّنَ استيلاءهم عليهم بقوله: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ وإسناده إلى ضمير الجمع يؤيد أنَّ جمع الظلمات؛ لكثرة أنواع الكفر"[1]

في تعدد وجوه الضلالات إشارةٌ إلى أن الفطرة في أصلها نور

وفي تضمّن قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الضلالاتِ الرديّة المختلفة الأنواع،؛ إشارةٌ إلى أن الفطرة في أصلها نور، ففي الفطرة الإنسانية نور الحق ووجدان الهداية، والإيمان الفطري، حتى يكون الضلال؛ إذ تتحكم الأهواء، والأوهام، وتستخذي النفوس، "فكل مولود يولد على الفطرة"[2]، وهي نور، حتى يكون الضلال بما في النفس من استعداد له مع وجود ذلك النور[3].

لفظ (النور) بين الاستعارة التّصريحيّة، ووجوه أساليب بلاغيّة:

بَلاغَةُ التَّنَوُّعِ في الأُسْلوبِ البَلاغِيِّ فَرْعٌ عَنْ تَنَوُّعِ المَعاني

لفظ ﴿ٱلنُّورِ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ إمَّا أنْ يُحْمِلَ عَلى الفِطْرَةِ الجِبِلِّيَّةِ، أَوْ البَيِّناتِ[4]، أو عَلَيْهِما مَعًا، وهُوَ الأَوْفَقُ في المَعْنى، والأَدَقُّ في الاسْتِعْمالِ، والأَلْصَقُ بمَقامِ البَلاغَةِ، ويَنْشَأُ عَن كُلِّ مَعْنًى أُسْلوبٌ بَيانيٌّ، فعَلى الأَوَّلِ تَكونُ اسْتِعارَةً تَصْريحِيَّةً، وعَلى الثَّاني تَحْتَمِلُ عِدَّةَ أَساليبَ بَيانِيَّةٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/46.
(2) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (1359)، ومسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (2658).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/953-954.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/16.

بلاغة الاِسْتِعارَةُ التَّصْريحِيَّةُ:

تَشْبيهُ الفِطْرَةِ بالنُّورِ دَليلٌ عَلى الاِسْتِعْدادِ الفِطْرِيِّ للهِدايَةِ

إنْ حَمَلْنا النُّورَ عَلى مَعْنى الفِطْرَةِ الجِبِلِّيَّةِ فالإخْراجُ عَلى حَقيقَتِهِ، والنُّورُ اسْتِعارَةٌ أَصْلِيَّةٌ تَصْريحِيَّةٌ، حَيْثُ شَبَّهَ الفِطْرَةَ بالنُّورِ بجامِعِ البَيانِ لسالِكِ الطَّريقِ الحَقِّ، وبَلاغَةُ هَذا الوَجْهِ أَنْ جَعَلَ الفِطْرَةَ نورًا، وسِواها ظُلْمَةً، وهُوَ يَدُلُّ عَلى الاِسْتِعْدادِ الفِطْرِيِّ في النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ للهِدايَةِ.

براعة اجْتِماعِ الأَساليبِ البَيانِيَّة:

اجْتِماعُ عِدَّةِ أَساليبَ بَيانِيَّةً دَليلٌ عَلى ثَراءِ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ

وإنْ حَمَلْنا النُّورَ عَلى البَيِّناتِ؛ فإمَّا أَنْ نَحْمِلَ الكَلامَ عَلى نَفْيِ الشَّيْءِ بإيجابِهِ، أَوْ عَلى التَّهَكُّمِ، أَوْ عَلى المُشاكَلَةِ، أَوْ عَلَيْها جَميعِها مَعًا، وهَذا مِنَ الثَّراءِ البَيانِيِّ في النَّظْمِ القُرْآنِيِّ.

أَوَّلًا: نَفْيُ الشَّيْءِ بإيجابِهِ[1]:

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يُوهِمُ أَنَّ الكُفَّارَ كانوا في النُّورِ ثُمَّ أُخْرِجوا مِنْهُ إلى الظُّلُماتِ، وهُمْ لَيْسوا كذَلِكَ، فالمَقْصودُ نَفْيُ النُّورِ عَنْهُمْ، إذْ لا نورَ لَهُمْ أَصْلًا ليَخْرُجوا مِنْهُ، فهِيَ نَفْيٌ للنُّورِ لانْتِفاءِ سَبَبِهِ، وهُوَ عَدَمُ إيمانِ الكافِرينَ أَصْلًا، فكَيْفَ يَثْبُتُ لَهُمْ نورٌ؟! فهِيَ أَبْلَغُ مِنَ النَّفْيِ الصَّريحِ؛ لأَنَّها تَحْتاجُ إلى إعْمالِ ذِهْنٍ، وإثارَةِ سُؤالٍ عَنِ النُّورِ الذي أُخْرِجوا مِنْهُ، فَعِنْدَ البَحْثِ نَجِدُهُ غَيْرَ مَوْجودٍ.

وهذا أُسْلوبٌ عَرَبِيٌّ عَتيقٌ عَريقٌ، قال امْرُؤُ القَيْسِ:

عَلى لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بمَنارِهِ *** إذا سافَهُ العَوْدُ النُّباطِيُّ جَرْجَرَا[2]

---

(1) ذكره ابنُ رشيق في العمدة، وعرّفه ابنُ أبي الإصبع بقوله: "أن يثبت المتكلِّم شيئًا في ظاهر كلامه، وينفي ما هو من سببه مجازًا، والمنفيُّ في باطن الكلام حقيقةً هو الذي أثبته"، يُنظر: ابن رشيق، العمدة: 2/80، والعدواني، تحرير التحبير، ص: 377.

(2) ديوان امرئ القيس، ص: 96، ومعنى البيت: على طريق واضح، والمنار: جمع منارة، وأصلها: مُنوَّرة، مفعَّلة من النّور، وسمّيت بذلك لأنها في الأصل كلُّ مرتفع عليه نار، وسافه: شمّه، والعَوْد: البعير الهرم، وقد عوّد البعير: إذا صار عَوْدًا، وذلك بعد بزوله بأربع سنين، واشتقاقه من عاد يعود، لأنه لعلوّ سنّه يعود في الطّرق مرارًا، والجرجرة: صوت يردّده البعير في حنجرته، وإنما يجرجر في الطريق إذا شمّه، لما يعرف من شدّته وصعوبة مسلكه. يُنظر: ابن الشجري، أمالي ابن الشجري: 1/298.

فلَمْ يُرِدِ امْرُؤُ القَيْسِ نَفْيَ الاهْتِداءِ بمَنارِ الطَّريقِ، وإنَّما أَرادَ نَفْيَ المَنارِ أَصْلًا، فإذا نُفِيَ المَنارُ، نُفِيَ الاهْتِداءُ بِهِ[1]، وهَذا الأُسْلوبُ مِنَ المُبالَغَةِ في النَّفْيِ بَديعٌ؛ لأَنَّهُ يَنْفي الشَّيْءَ بما يُشْبِهُ إثْباتَهُ[2].

ثانيًا: فَنُّ التَّهَكُّمِ:

حَمْلُ الآيَةِ عَلى نَفْيِ الشَّيْءِ بإيجابِهِ يَجْعَلُها قَريبَةً مِنْ فَنِّ التَّهَكُّمِ[3]، ففيها اسْتِهْزاءٌ بحالِ الكافِرين، وذَلِكَ بتَنْزيلِهِمْ مَنْزِلَةَ مَنْ كانَ لَهُ نورٌ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهُ إلى الظُّلُماتِ، مَعَ انْتِفائِهِ أَصْلًا! وهِيَ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: 49]، ولا عِزَّةَ ولا كَرامَةَ، وإنَّما ذَكَرَ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ تَهَكُّمًا بالمُخاطَبِ.

ثالثًا: فَنُّ المُشاكَلَةِ[4]:

جاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُشاكِلَةً[5] للجُمْلَةِ السَّابِقَةِ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، فلمَّا ذَكَرَ الإخْراجَ في حَقِّ المُؤمِنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، ذَكَرَ الإخْراجَ في حَقِّ الكافِرينَ مَعَ التَّعْكيسِ في المَبْدَأِ والمُنْتَهى، مُشاكَلَةً لَفْظِيَّةً؛ لبَيانِ الفَرْقِ بَيْنَ الفَريقَيْنِ.

اجتماعُ هذه الفُنونِ البَديعِيَّةِ اجْتِماعٌ في الفِكْرِ لَطيفٌ وفي النَّفْسِ خَفيفٌ

ولا مانِعَ مِنِ اجْتِماعِ هَذِهِ الفُنونِ البَديعِيَّةِ في ثَنايا هَذِهِ الدُّرَّةِ القُرْآنِيَّةِ التي وَصَفَتْ إخْراجَ الكافِرينَ مِنْ نورِ الهِدايَةِ والبَلاغَةِ، إلى ظُلُماتِ الضَّلالَةِ والغِوايَةِ، فإنَّ الآيَةَ مَحْمولَةٌ عَلى نَفْيِ النُّورِ بانْتِفاءِ سَبَبِهِ، فلَمَّا أَثْبَتَتْهُ الآيَةُ فُهِمَ إثْباتُهُ تَهَكُّمًا بالمُتَحَدَّثِ عَنْهُمْ، وكان ذَلِكَ عَلى سَبيلِ المُشاكَلَةِ قُوَّةً لَفْظِيَّةً مُؤَثِّرَةً، وهَذا اجْتِماعٌ في الفِكْرِ لَطيفٌ وفي النَّفْسِ خَفيفٌ، لهَذِهِ الأَلْوانِ البَيانِيَّةِ والفُنونِ البَديعِيَّةِ.

التَّعبير بصيغَةِ المُضارِعِ في قَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾:

جاءَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بصيغَةِ المُضارِعِ؛ لبَيانِ أَنَّ مَنْهَجَ الطَّاغوتِ مُتَجَدِّدٌ في إضْلالِ الكافِرينَ، وهُوَ يَقودُ إلى الهَلاكِ

(1) العكبري، شرح ديوان المتنبي: 1/304.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 3/30
(3) التّهكّم عبارة عن إخراج الكلام على ضدّ مقتضى الحال، استهزاءً بالمخاطب، يُنظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 3/91.
(4) المشاكلة أن تذكر الشيّء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، يُنظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 424.
(5) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 64.

السَّرْمَدِيِّ الدَّائِم، وتَجَدُّدُهُ يَدُلُّ عَلى حالِ الضَّلالَةِ التي يَعيشُها الكافِرُ مِرارًا وتَكْرارًا، وأنَّ العِنادَ ماكِثٌ تَحْتَ أَنْيابِهِ؛ لِمَنْعِ الكافِرينَ مِنْ رُؤْيَةِ أَيِّ نورٍ قَدْ يَسْطَعُ في قُلوبِهِمْ في أيِّ وَقْتٍ مِنَ الأَوْقاتِ. وليقابل ديمومة تلطّف الباري ﷻ بالذين آمنوا بتجدد إخراجهم من الظلمات إلى النور الذي أُفْصِحَ عن معناه بالفعل المضارع ﴿يُخْرِجُهُم﴾ كما سبق.

تَـجَـدُّدُ حـالِ الـضَّـلالِ الـذي يَعيشُهُ الكافِرُ يَدُلُّ عَلى العِنادِ في المُحافَظَةِ عَلى الكُفْرِ

بَلاغَةُ الفاصِلَةِ وارْتِباطُها بالمَعاني الإشارِيَّةِ في الآيَةِ:

إيثارُ الإشارَةِ إلى الكافِرينَ بالبَعيدِ لبَيانِ حالِهِمْ، وأنَّهُمْ في مَنْزِلَةٍ راسِخَةٍ مِنْ مُلازَمَةِ النَّارِ التي عُرِفوا بأَنَّهُمْ أَصْحابُها، فأَفادَ تَعْريفُهُمْ باسْمِ الإشارَةِ اخْتِصاصَهُمْ بهَذا الوَصْفِ، فهُمْ أَصْحابُ النَّارِ الحَقيقونَ بها دونَ سِواهُمْ، وهَذا فيهِ مِنَ التَّشْنيعِ عَلَيْهِمْ والتَّبْشيعِ لحالِهِمْ بما يُؤَكِّدُ أَنَّهُمْ في الظُّلُماتِ ماكِثونَ. وفي هذه الإشارة أيضًا "بيانٌ إلى أن أحوالهم التي عرفوا بها من كفرهم، ورضاهم بالطغيان حاكمًا عليهم متحكمًا فيهم مسيطرًا على قلوبهم، هي السبب في ذلك الحكم الخالد عليهم، وهو أنهم أصحاب النار"[1].

الإشارَةُ بالبَعيدِ لإفادَةِ رُسوخِهِمْ في النَّارِ مُلازَمَةً وعَذابًا

فاصِلَةُ الآيَةِ تُشيرُ إلى مَعْنًى ضِمْنِيٍّ مَآلِيٍّ أُخْرَوِيٍّ للفَريقَيْنِ، فإخْراجُ المُؤْمِنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ إشارَةٌ إلى إخْراجِهِمْ مِنْ ظُلُماتِ النَّارِ إلى نورِ الجِنانِ، وإخْراجُ الكافِرينَ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ إشارَةٌ إلى إخْراجِهِمْ مِنْ نورِ الجِنانِ إلى ظُلُماتِ النَّارِ.

دَلالَـةٌ إشارِيَّـةٌ للفَريقَيْنِ

ذِكْرُ أَصْحابِ النّارِ دونَ أَصْحابِ الجَنَّةِ اكْتِفاءٌ بَديعٌ، وذَلِكَ لرُسوخِ العِلْمِ بحالِهِمْ في الآخِرَةِ، فهُمْ في مَنْزِلَةٍ عالِيَةٍ وصُحْبَةٍ شَريفَةٍ دانِيَةٍ، وهَذا يُرَسِّخُ طُمَأْنينَةَ أَصْحابِ الجَنَّةِ بمَصيرِهِمْ، مِمَّا يَزيدُ غَيْظَ أَصْحابِ النَّارِ مِنْ مَآلِهِمْ، وهُوَ ما يَتَّسِقُ مَعَ النَّصِّ عَلى الوَعيدِ عَدالَةً في التَّبْليغِ، والإشارَةِ إلى الوَعْدِ فَضْلًا وإحْسانًا.

بَديعُ الاكْتِفاءِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/954.

ذِكْـرُ الصُّـحْبَـةِ دونَ مُرادِفاتِها إشـــارَةٌ إلى الوَصْفِ الجامِعِ بَـيْنَ الـسَّـبَـبِ والمُسَبَّبِ

ناسَبَ ذِكْرُ وَصْفِ الصُّحْبَةِ دونَ غَيْرِها مِنَ المُرادِفاتِ؛ لأَنَّ الكافِرينَ كانوا بمُوالاتِهِمْ للطّاغوتِ مُصاحِبينَ لَهُ، بدَيْمومَةِ العَلاقَةِ ولُزومِ الرَّابِطَةِ، التي أفادَها الفِعْلُ المُضارِعُ ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾، فكانَ مِنَ المُناسِبِ ذِكْرُ الوَصْفِ الجامِعِ في الكافِرينَ بَيْنَ السَّبَبِ والمُسَبَّبِ عَنْهُ، وهِيَ صُحْبَةُ الكافِرينَ للطَّاغوتِ في الدُّنيا وصُحْبَةُ النَّارِ في الآخِرَةِ، فمَنْ صَحِبَ السَّبَبَ صَحِبَ المُسَبَّبَ عَنْهُ، وتُقَوِّيهِ جُمْلَةُ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فلمَّا كانوا مُلازِمينَ للطَّاغوتِ في الدُّنْيا شابَهَتْ دَيْمومَةُ مُلازَمَتِهِمُ الخُلودَ في الآخِرَةِ، وهَذا مِنْ تَمامِ العَدْلِ الإلَهيِّ.

قال أبو زهرة: "وفي التّعبير بأصحاب النار إشارة إلى ملازمتهم لها، وبقائهم فيها، واختصاصها بهم؛ لأن أصحاب جمع صاحب، والصاحب هو الرفيق الملازم الذي اختصصت بصحبته، فهذا التعبير أفاد ملازمتهم للنار واختصاص النار بهم"[1].

ذِكْـرُ النَّـارِ دونَ جَـهَـنَّـمَ أَوِ السَّعيرِ

جاء اخْتِيارُ لَفْظِ النَّارِ دونَ مُرادِفاتِها؛ لأَنَّها العَذابُ الأَشْهَرُ، ولمُناسَبَةِ لَفْظِ النَّارِ للفَظِ النُّورِ، فالدَّاخِلُ في النُّورِ في الدُّنْيا خارِجٌ مِنَ النَّارِ، والخارِجُ مِنَ النُّورِ داخِلٌ في النَّارِ، ويَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَنَّ الدَّاخِلَ في النَّارِ في الآخِرَةِ خارِجٌ من نورِ الجِنانِ، والخارِجُ مِنْ نورِ الجِنانِ داخِلٌ في النَّارِ، وهَذا مِنْ بَديعِ التَّناسُبِ اللَّفْظِيِّ في القُرْآنِ الكَريمِ.

قال الحرالّي: وجعل الخلود وصفاً لهم إشعاراً بأنهم فيها وهم في دنياهم[2].

وجـه التـوكـيـد تـرسـيـخ اختصاص النّار بـهـم، وأبـديّـة مكوثهم فيها

بلاغة التوكيد في الفاصلة:

قال أبو زهرة: "وفي قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تأكيد لبقائهم فيها واختصاصها بهم دون غيرها؛ ذلك لأن التعبير بالجملة الاسمية فيه تأكيد، وتكرار المسند إليه بذكر كلمة ﴿هُمْ﴾،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/954.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/47

فيه فضل تأكيد، وتقديم الجار والمجرور وهو ﴿فِيهَا﴾؛ دليلٌ على اختصاصها بخلودهم فيها فلا منفذ لهم في غيرها؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب النور في الدنيا، فسدت عليهم أبواب الرحمة في الدنيا والآخرة"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضِّياء والنُّور:

الضِّياءُ ما يَتَخَلَّلُ الهَواءَ مِنْ أَجْزاءِ النُّورِ، فيَبْيَضَّ بذَلِكَ، وهُوَ النُّورُ السَّاطِعُ القَوِيُّ، الَّذي يُوَضِّحُ الأَشْياءَ؛ لأَنَّهُ يُضيءُ للرَّائي، وأَمَّا النُّورُ فهُوَ الشُّعاعُ، فالفَرْقُ بَيْنَهُما يَكْمُنُ في أَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: النُّورُ أَعَمُّ مِنَ الضِّياءِ، مِنْ جِهَتَيْنِ:

الأولى: يَصْدُقُ عَلى الشُّعاعُ الضَّعيفِ والقَوِيِّ، فضِياءُ الشَّمْسِ نورٌ، ونورُ القَمَرِ لَيْسَ بضِياءٍ، فكُلُّ ضِياءٍ نورٌ، ولَيْسَ كُلُّ نورٍ ضِياءً.

الثَّانِيَةُ: الضِّياءُ يُسْتَعْمَلُ في المَحْسوساتِ، بَيْنَما النُّورُ يُسْتَعْمَلُ في المَحْسوساتِ والمَعْنَوِيَّاتِ.

الثاني: الضِّياءُ أَقْوى مِنَ النُّورِ مِنْ حَيْثُ الأَثَرُ، ولذَلِكَ ارْتَبَطَ بالشَّمْسِ، بخِلافِ النُّورِ فارْتَبَطَ بالقَمَرِ[2]، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/954.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 311، والزمخشري، الكشاف: 2/329، والرازي، التفسير الكبير: 17/209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/94.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»